النتاج الجديد

((محمد وهؤلاء))

تأليف احمد عبدالمعطي حجازي

مؤسسة روز اليوسف ـ القاهرة

تعد كتابة التاريخ من أعقد الامور على الاطلاق . فبينما يكتب الفيلسوف عن تصوره للعالم مستخدما لغة اصطلاحية يستخدمها غيره من الفلاسفة ، وبينما يكتب الشاعر عن العالم كما يراه ويحس به مستخدما لغة واستعارات خاصة به ، يكتب المؤرخ عن واقع مضى وحقائق اندثرت ، وهو في كتابته يواجه عناصر عديدة متداخلة :فهناك ـ على سبيل المثال ـ الحقيقة التاريخية في ذاتها ، والتي فقدت الى الابد لانها تنتمي الى الماضي ، كما ان هناك ايضا الحقيقة التاريخية كما استجاب لها المعاصرون لها، واخيرا هناك تصور المؤرخ نفسه لكل هذه الاشياء . ويحاول المؤرخ لاهثا ان يحيط بكل هذه الجوانب وان يبين صلة الخاص بالعام والعام بالخاص . والامر اكثر تعقيدا بالنسبة لمؤرخ الافكار (وان كان كل تاريخ جيد .. هو في الحقيقة تاريخ افكار) اذ انه لا يكتب عن حقيقة تاريخية بعينها ، بل يتناول فكرة مجردة أو بعض الافكار السائدة في احدى الحقب التاريخية . والكتاب الذي بين ايدينا (احمد عبد المعطي حجازي : محمد وهؤلاء ، القاهرة : مؤسسة روز اليوسف ، ١٩٧١) هو تاريخ فكر اكثر مما هو تاريخ عام ، فهو يعرض لاحد جوانب الفكر المصري الحديث في القرن العشرين ـ اعني الصراع او العلاقة بين القديم والجديد .

ولكن كثيرا من المؤرخين الذين لا يستريحون الى التعميمات الضخمة، والذين يطمحون الى شيء من الدقة في كتاباتهم يتحاشون معالجة التاريخ العام للفكر ، مكتفين بمعالجة بعض الاعمال التي تدور حول موضوع واحد يعتقدون انه يجسد وبشكل محسوس وثري التيارات الاساسية في احدى الفترات التاريخية . وكتاب حجازي ينتمي الى هذا النوع من الكتب ، فهو استعراض ((لموقف الفكر العربي المعاصر عن سيرة النبي خاصة وعن الاسلام عامة ، وما طرأ على هذا الموقف من التطورات)) . وقد اختار كاتبنا سيرة محمد عليه الصلاة والسلام لانها سيرة تتسم بالشمول والعالمية وتتخطى كافة الحدود التاريخية ، ولكنها في الوقت ذاته((موضوع كاي موضوع يستطيع صاحب المثل الاجتماعية ان يعالجها من وجهة نظره)) . اي ان السيرة النبوية هي هذا الموضوع الخصب والثري القادر على تجسيد التيارات الفكرية الاساسية في مصر الحديثة . واختيار حجازي لهذا المنهج في التاريخ مكنه من تناول موضوع هام ومن الاحاطة بكافة جوانبه دون اللجوء الى التعميمات المجردة الجافة العائمة (وهذا امر يتسق مع رؤيته كشاعر يرفض التعامل مع المجردات ، ويزخر شعره بالصور الحية المحسوسة) .

هذا هو الاطار العام للكتاب ، فاذا انتقلنا الى الكتاب ذاته فاننا سنجد انفسنا في مجابهة دراسة صغيرة لا تربو صفحاتها على المائة والثلاثين ، ولكن كاتبها يعالج بذكاء شديد وببصيرة نافذة عديدا من القضايا التي تشغل بالنا ، كما انه يقوم بتحديد بعض معالم الفكر المصري الحديث . ولعل من اهم اضافات الكاتب محاولته تحديد السمات الدقيقة ((للعقلانية)) المصرية الحديثة . فرغم انه في المقدمة يقوم بتقسيم المفكرين المصريين بشكل تقليدي الى تقدميين عقلانيين او علميين ، ورجعيين لا عقلانيين (وهو في رأيي تقسيم مبتسر ناقص) الا انه في طي دراسته ذاتها يراجع مقولته هذه ، ويطرح القضية بشكل اكثر اصالة فيبين انه لم يكن ثمة ايمان اعمى بالعقل في بداية القرن اعقبته نكسة لا عقلانية في الثلاثينات ، بل ان الامر في حقيقته كان عملية نضوج تمثلت في تخطي العقلانية الميكانيكية (التي ظل سلامة موسى يدور في اطارها طيلة حياته، ولا يزال يدور فيه غلاة الاشتراكيين العلميين) . ففي المقال عن هيكل مثلا يبين حجازي ان هيكل لم يرتد عن العقل بل حاول ان يعرف محمدا ((معرفة العقل السليم للحق الواضح ، وانه حاول كذلك ان يجعل العقل سلاحا للايمان . كما يقتبس حجازي تعريف عميد الادباء لموقفه من العقل حيث يقول ان العقل ليس كل شيء ، وان الانسان كل مركب يتكون من مملكات اخرى ليست اقل حاجة الى الغذاء والرضا من العقل . ونفس الاتجاه يشير اليه حجازي في دراسته عن العقاد الذي يؤمن بان الانسان عاقل مختار ، بينما يتحرك غيره بالغريزة او القانون الحتمي ولا يملك الاختيار ، ولكن العقاد يهتم في الوقت ذاته بالقيم الوجدانية اهتماما حقيقيا . من كل هذا يخلص الكاتب الى ان اهتمام هؤلاء الكتاب ليس من قبيل الردة اللاعقلانية ، بل هو محاولة لتطوير رؤية مركبة ،انسانية بل وعقلانية في جوهرها ،وان كانت لا ترفض بعض العناصر اللاعقلانية مثل الايمان والوجدان ، ولا ترفض الجوانب الخلاقة في الماضي وفي التراث . وفي دفاع حار عن هؤلاء الكتاب يحاول حجازي ان يبين ان علاقة الفكر بالواقع السياسي ليست علاقة مباشرة بسيطة ، فالفكر ليس دائما انعكاسا للواقع ، بل انه احيانا يكون احتجاجا عليه . وانطلاقا من هذا الفهم الديالكتيكي يرفض حجازي اعتبار ان الموضوع الديني كاف بحد ذاته لوضع من تناوله في صف المعادين للعقل والتقدم . هذا التحديد الخلاق والدقيق للسمات الاساسية ((للعقلانية)) المصرية الحديثة هو اهم الموضوعات في الكتاب ، وان كان الكاتب مع الاسف لم ينبه القارىء له بما فيه الكفاية .

ولا تقتصر اهمية الكتاب على ما يثيره من قضايا وعلى ما يجيبه من اسئلة ، بل انها لتتعداها لتصل الى المنهج ذاته . فكاتبنا لا ينزلق ابدا الى تلخيص اراء هيكل او العقاد في محمد وفي الدين وفي السياسة وفي الطبيعة وفي الاف الموضوعات الاخرى ، بل انه ينطلق من الايمان بان رؤية اي كاتب اصيل هي بطبيعتها رؤية عضوية متكاملة ، وان هذه الرؤية تستند الى جوهر فلسفي متماسك يعبر عن نفسه في كل اعمال الكاتب ادبية كانت ام سياسية ، فلسفية كانت ام دينية . وهو لهذا السبب يحاول في كل فصول الكتاب ان ينفذ الى هذا الجوهر الفلسفي او الفكرة الاساسية . فعلى سبيل المثال يشير حجازي الى ان فكرة الانسان الطبيعي الذي لم تفسده الحضارة (وهي فكرة روسوية في اصلها) تشكل حجر الاساس لرؤية هيكل ؟ وهذه الفكرة تعبر عن نفسها في قصة زينب ـ تلك الفلاحة المصرية التي لم يفسدها المجتمع الريفي الذي تعيش فيه ، كما تعبر عن نفسها ايضا في حياة محمد النبي الذي عاش في البادية لا يعرف ((قيدا من قيود الروح ولا من قيود المادة)) . ان محمدا على حد قول حجازي هو اكمل مثال للرجل الطبيعي . ان تحليل حجازي ومقدرته على النفاذ الى جوهر رؤية هيكل ليدل على جسارة فكرية فائقة ، وعلى عقلية تحليلية خلاقة تصل الى اللباب دون القشور . واذا كان الفصل عن هيكل متماسك من الناحية الفكرية والشكلية لانه يدور حول فكرة واحدة ، فالفصل عن طه حسين لا يصل الى نفس الدرجة من الكمال اذ يبدو ان الكاتب لم يعثر على الجوهر الذي ينشد فلجأ تارة للوصف التلخيصي الذي لا يفضي الى اية نتائج ، وتارة اخرى اشار الى بعض سمات فكر طه حسين (مثل البعد الاجتماعي) دون ان يرينا الرابطة بين هذه السمات المختلفة . وحتى حينما يصل حجازي الى ما يشبه الجوهر (فكرة وحدة الحضارة) فهو لا ينجح في تبيان كيفية تجسد هذه الفكرة في اعمال متفرقة مثل مستقبل الثقافة في مصر

واديب وعلى هامش السيرة .

ولكن احسن فصول الكتاب على الاطلاق في رايي هو الفصل الذي يتناول فيه حجازي كتابات العقاد . فهو يلخص بشكل موجز ورائع افكار العقاد ، ذلك الفيلسوف المثالي المؤمن بعقل الانسان الذي يعلو على الضرورات الطبيعية ، وهو لهذا مؤمن بالبطولة وبالارادة الانسانية التي تنتصر على القوانين الحتمية . والجمال في هذا الاطار وثيق الصلة بالحرية ، والعبقري هو الذي يجسد الحرية والارادة اللتين تعلوان على التاريخ .. ثم يعرض حجازي بعد ذلك صلة هذه المفاهيم المترابطة بشعر العقاد وبكتابه عن عبقرية المسيح وبمواقفه السياسية المختلفة واخيرا بعبقرية محمد . ولكن مما يزيد اهميةهذا الفصل هو الصراع الفكري الخفي الذي نشب بين كاتب محمد وهؤلاء والعقاد . فوجدان حجازي تاريخي ديالكتيكي يؤمن بالتناقضات وبتصارع الاضداد (« لا يوجد عصر خلا من الشيء ونقيضه معا ») . هذا الوجدان يصطدم برؤية العقاد المثالية اللاتاريخية ، التي ترفض ان تعترف بالتناقض وبالتفاعل والصراع بين الاضداد . والتي تنظر الى محمد على انه عبقرية لا صلة لها بالزمان والمكان « لا يأخذ شيئا من عصره بل يعطي دون ان يأخذ ، او ان ما ياخذهاقل من ان يعول عليه » . وحجازي يحكم على هذه الصورة بانها ناقصة لانها تصفي ديالكتيك التفاعل بين الفرد والبنية والتاريخ . ان الدراسة القصيرة التي كتبها لنا حجازي عن العقاد مثل يحتذى ، ففيها قيم المؤرخ الناقد الشاعر فكر العقاد بشكل موضوعي دون ان يتخلى عن ذاتيته ، وهي لهذا السبب تجلو لنا الكثير ، وتوضح لنابعض الجوانب الهامة لوجدان شاعرين من اهم شعرائنا المحدثين .

ولكن هناك بعض التحفظات التي اود اثارتها بخصوص هذا الفصل من الكتاب :

اولا في عبارة عابرة يقول حجازي ان العقاد تاثر بالفلسفةالالمانية. ورغم ان مثل هذه التعميمات مفيد للغاية الا انها تحتاج لمزيد من التحديد (كما فعل حجازي بتعميماته عن العقلانية المصرية الحديثة). ما هي طبيعة علاقة العقاد بالتراث الالماني ؟ أكان تاثره سلبيا ام خلاقا ؟ اي المفكرين الالمان كان اكثر تاثيرا من غيره على العقاد ؟ ويمكن الاحتجاج بان الاجابة على هذه الاسئلة تقع خارج نطاقالكتاب. وفي هذا بعض الحق ، وان كان من الواجب ان تقرر ايضا ان اثر الفلسفة الالمانية ظاهر في عبقرية محمد . فالعقاد يتناول علاقة الفرد بالتاريخ ، ويصور العبقرية على انها تجسيد « للفكرة المطلقة » وهذه كلها مفاهيم هيجيلية (« قالت حوادث الكون : لقد كانت الدنيا في حاجة الى رسالة .. وقالت حقائق التاريخ : لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة صاحب تلك الرسالة .. ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ ») . ظهر محمد لان التاريخ كان في انتظار هذه العبقرية، اي ان البطل الحر هو نفسه البطل الخاضع لمسار التاريخ الحتمي، وهنا نجد التناقض الاساسي في فكر هيجل بين الحرية المطلقة والحتمية المطلقة . وهو تناقض تخطاه العقاد الى حد كبير بان قلل من شان التاريخ واعلى من شان العبقرية . وتصور شلنج للعبقري على انه الشخصية التي تجمع في ذاتها التناقضات وتتخطاها هو حجر الزاوية بالنسبة لتصور العقاد لشخصية محمد (« وهو على صلة بالدنيا التي احاطت بقومه .. فلا هو يجهلها فيغفل عنها ، ولا هو يغامسها كل المغامسة فيغرق في لجها ، « يتيم بين رحماء » ، نبيل عريق النسب لكنه فقير).

ثانيا عبقرية محمد ، (بل وكل السير الاخرى في الكتاب)، هي اعمال ادبية بالدرجة الاولى ، ولكن الكاتب آثر ان يركز على الجوانب الفكرية وحدها دون ان يرى تجسداتها الشكلية . فمثلا كان من الممكن ان يعلق على الطريقة التي صاغ بها العقاد حادثة اسلام عمر . كما انه كان من الممكن . ان يعلق على ظاهرة التكرار في نثر العقاد ، وهو تكرار يثير الضيق احيانا حينما يكون الغرض منه الزخرفة الخطابية وحدها .ولكنه كثيرا ما يكون له وظيفة محدده . فاحيانا يكون الغرض من التكرار قسر القارىء على التركيز (« فلما عدلوا عدل الجيش عن الفزوة ») ، (زوالها يزيل ما لهم من سطوة الحكم ») . كما ان التكرار احيانا يقوم بعملية الربط بين اجزاء قد يبدو انها متنافرة ، او بين اجزاء تنتمي الى كل واحد (« عالم يتطلع الى نبي .. وأمة تتطلع الى نبي ، ومدينة تتطلع الى نبي ، وقبيلة وبيت وابوان اصلح ما يكونون لانجاب ذلك النبي ») واحيانا يكون الغرض من التكرار تاكيد التناقض ، او لتاكيد التشابه.

ولكن رغم تحفظاتي السابقة ، يمكنني ان اجزم بان كتاب حجازي اضافة خلاقة لمكتبتنا العربية ، ان كان من ناحية المحتوى ام من ناحية المنهج .

وفي ختام المقال قد يكون من المفيد ان نسأل انفسنا : هل يمكننا ان نعد كتاب حجازي تعبيرا عن حركة البعث الصوفي الجديدة التي تتمثل في كتابات مصطفى محمود واحمد بهجت ولفيف اخر من الكتاب ، هذه الحركة التي تشك في قيمة العلم الحديث وفي الرؤية العلمية الوصفية ، دون ان تتحول الى رؤية سلفية في الوقت ذاته ، بل تظل في وجه من وجوهها حركة تقدمية تؤكد اهمية التفكير الفردي النقدي والمعاناة الشخصية والتجربة المباشرة ؟ ان الاجابة على السؤال السابق لا بد وان تكون بالنفي . فحجازي ، كما يبين من قبل ، مؤمن بالتاريخ وبان وعي الانسان تتاح له ، وهو كمفكر مخلص لفكرة القومية العربية يؤمن باهمية التراث العربي الاسلامي، ولكنه كمفكر ثوري يؤمن باهمية التقييم النقدي لهذا التراث . واهتمامه بشخصية النبي ليس اهتماما بالمطلق بل هو « حب الرجل لمثال من الرجال نادر ، وحب العربي لنموذج البطل العربي الكامل، وحب الانسان لقائد انساني فذ . انه حب انسان تاريخي لمثل اثبت فعاليته وايجابيته عبر التاريخ . ان حجازي ينتمي الى هذا الفريق من المثقفين الذين عاصروا وعضدوا المد الثوري اليساري في الخمسينات واوائل الستينات ، ولكنهم يحاولون الان ان يعمقوا من هذا التيار وان يزيدوا من انسانيته بان يؤكدوا قيم الديمقراطية والليبرالية ، وهم لهذا يعودون لتاريخ مصر في عهدها الليبرالي ، والى حكمة الاجداد . ان عودتهم الى هذه الحقبة من تاريخنا والى تراثنا تشبه الى حد كبير محاولة العقلانيين الاوائل انضاج رؤيتهم عن طريق العودة للتراث العربي الاسلامي .

القاهرة — عبدالوهاب محمد المسيري

« قرط امي »

شعر الميداني بن صالح

كان حسنا ان يجمع الميداني بن صالح اشعاره ، ، المتفرقة في الصحف ، وان يظهرها للناس في كتاب ، وهو بذلك يمكنهم من ان يتعرفوا على حقيقة نظرته الى الدنيا واحداثها ، والواقع وقضاياه، وان يضع بين ايديهم مفتاح شخصيته ، والاسلوب الفني الذي ادى به قصائده المختلفة ، وقد يفيدنا ـ قبل النظر في ديوانه الاول ـ ان نتوقف عند شخص الشاعر فنتلمح خط سيره من البداية ، وكيف تطورت به الاحداث من الريف الى المدينة ، وكيف القت به سبلها الى مغامرة الشعر الكبرى .

والميداني الشاعر ، في العقد الرابع من عمره يبدو فتيا ، ذا حركة دائبة ، ونشاط لا يهدأ ، ينحدر من عائلة نفطية بالجريد التونسي ، وفي نفطه اختلف الى الكتاب ، والى المدرسة الابتدائية ثم التحق بالعاصمة ، دارسا بجامع الزيتونة ، الذي كان الموئل الاوحد للطبقات الفقيرة من ابناء الشعب التونسي ، الى ان احرز على شهادة التحصيل سنة ١٩٥٢ ، والوطن وقتئذ ، يخوض معركته الحاسمة للتخلص من اغلال الاستغلال والعبودية ،وفي هذه الفترة الدراسية ساهم الشاعر في كثير من الوان النشاط الطلابي الزيتوني ، الذي نهض للمطالبة باصلاح الاوضاع التعليمية ، وتعريب الادارات العامة ، واحلال الشخصية التونسية منزلتها المحترمة في البلاد وبما ان ابواب الدراسة الجامعية ، التي كان يتوق اليها الشاعر موصدة ، في اوجه جل التونسيين ، حيث سلك الاستعمار سياسة الحصار الثقافي ، للحد من انتشار افكار التحرر والوعي الوطني،وان الباب الذي يصح لحاملي شهادة التحصيل دخوله هو التعليم الابتدائي، فقد قبل هذه الوضعية مؤقتا ، وظل يتسكع في هذه المنزلة سنوات ثلاثا بالجنوب التونسي ، شاهد اثناءها بؤس الكادحين في المناجم، من العمال التونسيين ، والوان العذاب الذي يقاسون ، مما سيكون له تاثير عظيم على شعره فيما بعد ، وبمجيء الاستقلال فتح الباب، او قل سنحت بعض الفرص ، امام قلة من ذوي الطموح ، فالتحق شاعرنا ببغداد ، حيث درس بجامعتها ، واحرز على الاجازة في التاريخ من كلية الاداب ، وفي بغداد وجد الشاعر المجال فسيحا ، لاشباع هوايته الادبية ، فقد كان المناخ الثقافي والادبي ، في قمة ازدهاره وتالقه ، وكانت حركة التجديد الشعري ، ما تزال في بواكيرهاالاولى، وفي عنف قوتها ، وكانت اسماء بدر شاكر السياب وعبدالوهاب البياتي ، ونازك الملائكة ، وبلند الحيدري ، تشيع وتمتد ، وتقود حركة واسعة ، لتجديد قيم الشعر العربي ، والنهوض به الى مستوى العصر الحديث حيث يتخلى الشعر عن ان يكون بخورا يحرق امام اقدام الحاكم والسلطان ، او ملهاة يتسلى بها الناس حين يلقى بعضهم بعضا ، في اوقات الفراغ ، او حذلقة وبراعة يبديها الشاعر ليبهر الاسماع بالرنين الاجوف العالي ، وانما هو قضية ينبغي ان تعاش وتعاني ، وفن ينبغي ان يتمرس به طويلا لتظهر التجربة الشعرية متكاملة ، خالية من الفجوات ، وانواع الضعف والقصور، وهي حركة استفادت كثيرا من تطور الحركة الشعرية في العالم، ومما قدمته فنون عدة ، من كشوف في هذا الميدان . في هذه البيئة الادبية المجددة ، عاش شاعرنا ، وتشرب كثيرا من قيمها ، في الفن والحياة ، ولما عاد الى ارض الوطن تفاعل مع الاحداث التي يعيشها الانسان التونسي ، وشارك مشاركة ايجابية ـ في الحدود التي تتهيا له ـ في كثير من المجالات الاجتماعية والثقافية ، التي تستحوذ على اهتمام المواطنين ، ومن خلال هذه المشاركة التي اتضحت فيما نشر من انتاج شعري ، يمكن رصد اتجاهات الشاعر الفكرية ، وهي فيما احسب تسيطر عليها نزعتان قويتان ، ما زالتا حتى الان تسيطران على الفكر العربي الحديث ، وهما النزعة الاشتراكية والنزعة الوجودية فتراه يمجد العمل ، ويطالب به كحق طبيعي من هذه الحقوق الاساسية التي تولد مع الانسان ويتالم ـ للعالم الجريح ـ وينوح على موت العامل ـ ويحتج مع ـ العامل الطريد ـ بل هو يرفع شعارات ذات حدود واضحة ، تنادي بالعدل الاجتماعي، وتلح بتطبيق الاشتراكية ، كحل حتمي لوقف ظلم الانسان لاخيهالانسان.

وهو من جهة اخرى ، يصور كثيرا من الوان القلق الوجودي ، والضياع الذي يمتلىء به الكيان ، حين تخلو الذات الى نفسها ، تتلمس نقاط الارتكاز ، في عالم قد اضطربت قيمه ، واشتبه فيه الصدق بالزيف ، والحق بالباطل ، كما نراه ينادي بالالتزام ، على النحو الذي ينادي به ـ سارتر ـ تقريبا ، ويلح على ضرورة ارتباط الاديب التونسي بقضايا مجتمعه ، وهي قضايا مصيرية ، باعتبار المرحلة النضالية التي تخوضها الشعوب العربية ، وهي تتطلب معالجة اصيلة واكيدة ، دونما الزام او ارغام ، وانما هو ذلك الالتزام العفوي، الذي ينبع من تيقظ الاحاسيس الانسانية النبيلة في نفس الاديب ، واستجاباته التلقائية ، لآلام الكادحين من العمال والفلاحين وعموم المحرومين والمعذبين .

هذه بعض سمات فكره حتى الان ، كما اتضحت لي ، اما شخصيته فهي مزيج غريب من الجد والهزل ، او الصلابة واللين ،فقد يلقاك رضيا بشوشا ، لينا سهلا ، غير انه يلقاك في بعض الاحيان الاخرى ، صلبا عنيفا . وخاصة تجاه بعض القضايا ، التي يعتقد ان موقفه منها هو الحق . وديوان « قرط امي » الذي احاول ان ارسم من خلاله صورة صاحبه ، يقع في مائتين وثمان وثلاثين صفحة ، كتب مقدمته محمد العروسي المطوى ، الذي له ارتباطات وثيقة بالشاعر ، وعشرة طويلة ، زادتها الايام تاصيلا وتدعيما ، وقد حاول ان يبرز فيها باسلوب مشرق متين ، بعض القضايا التي يتعرض لها الشعر التونسي المعاصر ، كعلاقة الانتاج بصاحبه ، ومدى الشعور بمسؤولية الحرف الذي يكتب ، وهو يكتشف من خلال معاشرته وصلته بالشاعر، عمق التطابق بين الكلمة والفعل ، والراي والعبارة ، والفحوى والصورة عند الميداني ، ويتعرض لقضية الالتزام فيتساءل بعمق عن ذلك الرهط من المنتجين في حقل الفكر والوجدان ، عن موقفهم من مسيرة الشعب ، الذي صمم على النهضة ، وعزم على خوض معركة الاصلاح الكبرى ، بايمان وحماس ، ماذا يكون موقف اصحاب هذا القطاع من مسيرتنا الكبرى ؟

ويجيب على هذا التساؤل بالتاكيد على ان : الانعزال عن ركب تلك المسيرة هو هروب من الميدان ونشاز عن الركب ، وفرار من شرف معركة البناء والتشييد ، ومن ثم هو التخلي المكشوف عن تحمل المسؤولية ، التي هي اشرف ما يتحلى به الانسان ويتحمله .

ويتالف الديوان من ثمان وعشرين قصيدة ، كتبت كلها بالطريقة الجديدة ، احتوتها ابواب خمسة هي : من مذكرات تلميذ ريفي ، اشباح، رؤى ، اشواق بطولة شعب . وروعي في تصنيف القصائد ، ما قد يكون من صلة بينها ، فيما يتصل بموضوعاتها والاهتمامات التي تدور فيها .

وتكون الفاتحة بقصائد خمس ، او بلوحات ، كما يحب ان ينعتها صاحبها ، وهي تصوير بديع لطفولة الشاعر، تتخذ طابع السرد القصصي ومن خلالها نتعرف على اطوار سعي حثيث ، وجهاد ثابت متواصل، من اجل المعرفة والدراسة ، وليتوفر ذلك ، تهدي هذه الام الحنون قرطها الذهبي الوحيد ، الى طفلها الطموح لكي يستعين بثمنه ،في رحلته الشاقة الى العاصمة ـ ومن هنا جاءت تسمية الديوان ـ ويروي الشاعر رحلته من البداية الى النهاية ، واصفا ما تجيش به نفسه من آمال واحلام ، وما كان يكتنفه من رهبة وسكون ، وهو يشق مع حماره الامين ، هذه الطريق الرملية الى حيث محطة القطار ، وفي القطار ينعكف على نفسه يتاملها ليستبطن اعماقها ، فاذا هي ممتلئة حزنا وحيرة ، فليس في ماضيه حسرة حتى يذكره ، وليس في حاضره امن حتى يركن اليه ، اما المستقبل فهو غامض يتسم بالاسى والسواد ، ولكنه ما يلبث ان يسترد نفسه ، بل يثور على نفسه وعلى القيود التي كبلتها ، ويصمم على ان يحقق ـ لوجوده ميلادا جديدا :

وهنا ادركت شيئا
فتحسست وجودي :
اترى احيا كما كان جدودي ؟
ابدا .. لا ، سوف امضي ثائرا
اقطع اثقال قيودي
وتقاليد الجمود

عابرا كل الحدود
ان هذا القرط نجم لسعودي
وحماري صامت يرقب مشتاقا صعودي
للرحيل
سفري نقطة بدء لوجودي
وليلاد جديد
فتقدم يا حماري للرحيل
ووداعا ، قريتي الشهباء
يا ارض النخيل .

وينزل المدينة ، وقد تركزت فيها كل الامال ، ولكنه يفاجا بما يكتشفه فيها ، انها ليست كقريته الوادعة ، تلك الضائعة في بحر الرمال ، وانما هي عالم قد اضطربت فيه المقاييس ، وانحدرت فيه القيم الى حيث لا قرار ، حيث يتبدى الناس ذئابا مفترسة ، والورود والزهور والاشجار ، اشواكا لعينة ، انها صورة متجددة ابدا، تتجدد مع كل قادم جديد ، انها ـ المدينة بلا قلب ـ التي حدثنا عنها احمد عبدالمعطي حجازي ، وهي ماوى ـ الناس في بلادي ـ الذين وصفهم صلاح عبدالصبور ، وهي موضوع رسالة يكتبها الميداني الى ابيه ، يحدثه فيها عن الظلام الذي يغمر المدينة ، والدمار والخراب الذي يشيعه الاجنبي المستعمر بين جنباتها :

مدينتي يا ابتي يغمرها الظلام
تسكنها الذئاب
والبوم والغربان والجرذان
تملأها الصلبان
يحكمها القرصان
يا ابتي الحبيب
مدينتي يحكمها الغريب

وتأخذ المدينة من الشاعر عددا كبيرا من قصائده منها ما هو اجتماعي بحت كالخفافيش الصغار ، وذبابة ، ومنها ما هو ذاتي تأملي كضياع مثلا ، وقد يحسن ان نتوقف عند احدى القصائد ، التي ذاعت لها شهرة واسعة ، غب نشرها ،وهي ذبابة . لقد حيا الشاعر آنسة يعرفها ، فاجابته بالفرنسية ، واتضح من خلال حديثه معها ، كانها تعيّره لعدم اجادته الفرنسية ، فتوجه اليها بالخطاب ، ومن خلالها توجه الى مثيلاتها وامثالها ، من الذين مسخت منهم الارواح ،فتنكروا للتاريخوالحضارة ، وتعلقوا بالقشور والخداع :

عربيا كنت فجرت الحقيقة
عندما ضل طريقه
عالم الامس البعيد
عربيا كنت حررت العبيد
فاذا الارض تميد
للندا للفجر للعهد الجديد
للحدا للنور للصبح السعيد
وتقولين غبيا
« اندجان »
ايه يا سخف الزمان
عربيا كنت علمت الزمان
يوم ان كان صبيا
عاريا يحيا شقيا
حيوان
وانا في ذلك العصر البعيد
كنت انسانا سعيد
عبقريا وذكيا

هذه القصيدة هامة جدا ، لانها تكشف عن جوانب ايجابية في نفسية الشاعر وفكره ، ولانها تدل على حقيقة الاهتمامات ، التي تشغل باله ، والمسؤولية التي يحسها تجاه الجيل الضائع من ابناء شعبنا العريق ، ورغم ان كثيرا من كلمات القصيدة ، تتخذ طابع القسوة والعنف ، حتى لتكاد ان تخرج عن كل نظام ، فانها لتدل من وجه آخر ، على المدى السيىء الذي انحدر اليه بعض الشباب ، والفساد العقلي الذي سيطر على اتجاههم في الحياة .

ولعل اهم قصائد الديوان ، هي تلك المتعلقة بقضايا الاجتماع والسياسة ، فان للشاعر موقفا واضحا قويا ، من قضية العدالة الاجتماعية ، وضرورة تعميم الاشتراكية ونشر خيرها بين كل الناس، وهو يلتزم صراحة بان يكون لسان هؤلاء العادلين من العمال المضطهدين والفلاحين الجائعين ، وحادي مسيرتهم الكبرى ، في زحفها الطويل نحو تحقيق اهدافها المنشودة .

ساغنيك يا جموع الرفاق
واغني تحرري وانطلاقي
وانير الدروب حتى احتراقي
للجماهير نشوة وحنين
ساغني العمال لحن النضال
واغني الفلاح بين الدوالي

وقد تغلغلت هذه الافكار في نفس الشاعر تغلغلا ، خالط منه العقل والقلب ، وتكيفت وفقها رؤيته في الفن والشعر ، واتضحت امامه بسببها ، مهمة الشعر ودوره في النضال الطبقي ، ومقاومة الحيف والظلم الاجتماعي ، ولذلك لا بد ان يكون الشعب المضطهد هو ينبوع الشعر ، والمصدر الاساسي الذي يستوحي منه الشاعر معانيه وصوره ، ولا شك انه يعرض بذلك لدعاة الفن للفن ، الذين يعزلون الشعر عن مهامه الاجتماعية ، ويحصرونه في موضوعات الذات الخاصة ، وما يتصل بها من صنوف القضايا الضيقة ، التي يوحي بها الفراغ والتملق ، ويدعو اليها ايثار السلامة وتجنب الاشكالات، وسائر ضروب المضايقة والارهاب :

شعري لهاث الكادحين على الدروب
شعري اهازيج الشعوب
من صارعوا الامواج والبحر الغضوب
من غالبوا الاقدار واقتحموا الخطوب
من عبدوا الطرق المديدة في الجبال
وفي الصحاري والسهوب
الشعب جبار غلوب
الشعب الهامي ، الا الشعر في قلبي
الرحيب

وانطلاقا من هذا المفهوم لمهمة الشعر ، ودوره في مقاومة البؤس والظلم تمتلىء نفس الشاعر هموما واحزانا ، للمصير المرعب ، الذي يتربص لانسان ما بعد الحربين ، حيث ينشىء العمالقة مدنا رهيبة، يعدون فيها باحكام واتقان ، ادوات القتل والدمار ، وبذلك يهددون الانسان في سلمه وامنه ، ويعرضون حياته للموت والمحق ، وحضارته وسائر ما ابدع وشيد ، للخراب والدمار ، وتتساءل في حيرة وحزن عميقين :

يا كوكبي الوجل الحزين
اترى سيدركك الدمار
وتجف بسمات الصغار
وتصير واحة سلمنا الخضرا قفار

ويجيب الشاعر ، باسم كل الضمائر الآمنة ، ورغبة الشعوب الملحة في السلم وتحقيقه :

ان العدالة والاخوة والسلام
ان التعاون والمحبة والوئام

امـل الشعـوب
يا سحق تجـار الحـروب
يا تعس اعـداء الحياة

شاعرنا اذن بحكم النماذج التي اوردناها ، ذو نزعـة واقعية ، تستهدف التعبير عن طموح الفرد الى تعديل وضعيته فـي الحيـاة، وارجاع توازنهـا المفقود ، الذي اخل به جشع البعض ، ممن تهيا له ان يمسك بمقاليـد السيادة والنفوذ ، وان يمارس من مركز القـوة والغلبة، عمليـة النهب والقصب ، واشاعـة الفوضى وسط كيـان المجتمع المقهور ، وهي نزعة ـ كمـا هو معلوم ـ تستحـوذ باهتمـام شعراء الطليعـة في الوطـن العربي ، وشعرهم ينهض دليـلا قويا، على تشبعهم بالقيم الانسانية النبيلة ، وما تعنيه من عدل وحق وخير، ومن وجوب تأصيلها في ابنيتنا الاجتماعية التداعية ، غير ان سبـل التعبير بينهم تختلف وتتبايـن ، فالبعض يلتزم اصول الفن الشعري، وما عرف لـه من قيم في الشكل والمضمون ، تقتضيهـا ظـروف التجربة الشعرية الحقة ، وبخاصة في هـذا اللون من الشعر الذي نسميه بالجديد ، والذي اخذت حركته تتسع الى مدى غير محدود . والنظرة الموضوعية تقتضي الاشارة الى ان الشاعـر الميداني بن‌صالح، يهمل في عدد وافـر من قصائده ، اغلب تلك العناصر الفنية ، بـل نراه يسف في بعض الاحيـان اسفافا ، يدعـو الى العجب والحيرة حقا ، فينظم في موضوعات آنيـة ، عابرة ، قد لا تثبت للامتحـان والتجريب ، بل قـد لا تكـون صالحـة اصلا لان تكـون مادة يتمثلها الشاعـر الحق ، ويصوغ منهـا تجربته الفنية ، انظـر الى هـذه الابيـات مثلا :

ايه يا شاعـر من غيرك بالتخطيط
يشدو وينـادي
ينشر الفرحة في كل النوادي
في القرى في مدن ـ الخضراء في
كل البوادي
عبر ارجاء بـلادي

فانه ينتصب داعية جهيرا لمشاريع التخطيط الفلاحية وغيرالفلاحية التي رسمت في وقت من الاوقات لتعمم وتنشر ، وهو بعمله هـذا لا يختلف عن اي عمل صحفي ، تنهض به صحيفة يومية ، رسمية او غير رسمية .

ولكن من نحو آخر لا يصح ان نغفل ان شاعرنا ، لم يتخلص بعـد من تأثره بشعراء التجديد في المشرق العربي امثـال عبدالوهـاب البياتي ، وصلاح عبدالصبور وبدر شاكـر السياب ، الذيـن نجـد بصمات تأثيرهم في كثير من قصائده في هذا الديوان ، ومن اجل ذلك فاننـا نؤمل ـ كبير الامل ـ في ان نراه في دواوينه المقبلة قـداستقل بشخصيته الفنية ، واستفـاد ـ كبير الاستفادة ـ مما قدمه هؤلاء الشعـراء الافذاذ من اعمال تستحق الاعجاب والتنويه .

كما اننا نعتقـد ان الميداني بن صالح ، له من الامكانيات‌والقدرات ما يمكنه من ان يقدم لنـا فنا يمتع الذوق والعاطفـة ، ويخدم المجتمع والشعب والانسانية فـي آن .

حاجب العيون ـ تونس .

ابو زيـان السعدي
عضو (اتحاد الكتاب التونسيين)

دوائـــر الاصفـار
ديوان شعر لمحمد الشعرة

من طبيعـة الشعـر انه لا يجعلنـا نفهم كل ما نريد . لكنه يبقـى، حتى الان ، افضل صوت لنـا . قد نقترب مـن ذاتية الشاعـر ، لكـن صميم احساسه صعب . لهذا يشكـو الشاعـر اكثر مما يشكـو النـاثـر من الفهم . وكلاهمـا يحاول ان يسمو الى الايجاز الفني : منتهى التعبير عـن المعنى في اقل شكـل ممكـن .

اعادتنا مرات قراءة قصيدة ، سماع قطعـة موسيقية ورؤيـة لوحة هي محاولة منـا لتكملـة ما يتركه الفنـان حرا لوجداننا . واذا لـم تحدث هذه التكملـة بيننا وبينه تثـار قضيـة ما نحكم عليه نحـن بالغموض ويدافع هو عن نفسه بمـا يمكـن ان يسميه سطحية القارىء. ليس الخـلاف بيـن شاعـر واخر . ان معظم الشعراء متفاهمون .انـه كالفـرق بيـن الاحتراف والهوايـة ، الاختراع والاستعمال . وهنـا يحدث التفاوت . انهم يدركون جميعا انهم من صلب ابوللو. والجدال معهم حول الالهام يحيلنا الى برناس . Parnasse لهذا يبقى خلافهـم خلاف اخوة . ما يستحق الاهتمـام هـو علاقة الشاعـر بالقارىء . ان قضيتهمـا لا تنتهي الا بانتهاء الخالق والمخلوق . لكـن الشاعـر قـد يعترف انه والقارىء شريكـان في اللعبة كمـا تجرأ بودلير ان يقـول: ايهـا القارىء المنافق ـ يا شبيهي ، يا اخي !

الكاتب قد يتاح له ان يعبر عـن وعيه لفظـة بلفظة ، اما الشاعـر فيضطـر الى التلميح . لا اقصـد هنـا الشعراء الذيـن يغلب عليهم الوصف ، ولا هؤلاء الذيـن يقول عنهم ت.س. اليوت : « لم يتعلم المرء الا انتقاء خير الكلام للشيء الذي لم تعـد ثمة ضرورة لقوله ...» ان هؤلاء يجزئون اشياء واشخاص . يعبرون بلفظتين او اكثر عن معنـى واحد ، تكفي له لفظـة . ان جماليـة اللفظ تشبه عند بعضهم لحظات التعرية المزعجة . (ستريب تيز) يبالغون في تلميع الكلمات حتـى تفقـد لونهـا الاصلي . تهش اللفظة وتصير مثل مكنسة من زجـاج كمـا عبر احدهم عن اديب مغربي يشبه هديل الحمام بالقطن ، والساعة في الحديقـة صفصافة ، وقد يشبه لون قهوة بالحليب بسحابة مفككة او بمـاء النهـر في يـوم شـات .

انها آفـة بعض البرناسيين الرمزيين الذيـن يهتمون بالاطار الفني بهوس اكثر ممـا يهتمون بمضمون صورته لان (الشعـر يصاغ بكلمـات لا بأفكار) كمـا يقول مالا رميه .

اننا نضطـر ، احيانا ، ان نتعامل مع الاشياء والاشخاص في‌الظلام او البعد : نتلمسهـا ونسمعهم لكننا لا نراهـا ولا نراهم . الاشبـاح تتراءى لنـا ساكنـة او متحركة لكـن لا نميز بيـن شجرة البرتقـال والليمون ، الحصان والفرس ، الرجل والمرأة الا بمـا لدى كل واحـد منـا من استعداد وتفاوت قوة الفراسة والحدس .

شمس ٦٧
وقحـة
كالدملـة الوقحـة
فوق صدري
(اوه ! انت جميلة جدا ، جدا)
كذا كنت اغنـي
قبل ان يغرز السكين في ظهري
قبل ان ينبت الحقد في صدري

من هنا تبدأ ماساة تشويه الجمال . الانسان العربي ، الصديـق القديم للشمس ، بدأ يفقـد ايمانه في جمال الشمس التي لا تغـرب عنه . لم يعـد يتغنى بها ، لانها اليوم ، صارت :

(حصى في العيـن
حصى بين الرجل والنعل)

والارض التي يملكها لم تعد صالحة ، لانها مليئة بالطفيليات :

(الدوم فيها ، يا ربي ، يمتص الثراء ، يقتلني) .

اذا احزنه الليل فـان شمس الصباح تعيد اليه الامل في العيش من جديد . لكـن هذا الامل سيغدو وضيعـا عندمـا يسقط (الحمار)

وتخور قوة (الثور) . حينئذ يسود شعار : (المجد للبلادة .)

لقد صارت شمسا تحرق : تخشب الحلق ، تورم اللسان ،تعيب بالدوار القاتل . ان التيه الذي بدأ لم ينته بعد . اذن لم يبق له سوى ان يصيح :

اغربي مصفرة الوجه
الاطفال في الزنزانة
لا احد في الدار

لقد اختلطت عليه الاشياء :

(لا شيء اسود ، اصفر ، ازرق كالكآبة) .

الكآبة هنا تمتص كل الالوان . الوان الموت والحياة تذوب فيبعضها ليصير لها لون واحد .

ماتت اسطورة العون الذيسيأتيه منالسماء مثلما ماتت القمرية(1). الشاعر الذي كان يتغنى بجمال الاشياء : سماء الليل او حقول النهار ، دغدغة الحلمات او ملاطفة ذقون الغلمان ، هو الان :

على الرصيف
ملقى هو الشاعر الجميل على الرصيف
انقضى الربيع والخريف
وانقضى الشعر والخيالات والمعنى الحصيف

كان مثل هذا الشاعر مثل بهلوان نتشه في « هكذا تكلم زرادتشت » . لقد لعب بمهارة على الحبل . وطالما لم تخنه مهارته يستمر الاعجاب والتصفيق له . لكن حين دفعه مهرج الى السقوط ، تداخلت عظامه في بعضها ، صار اضحوكة . انه لم يجد فوق رأسه غير رجلالهي حمله برفق هامسا في اذنه باخر كلمات العزاء عن المصير الدينوني الذي كان يخافه هذا البهلوان المسكين . « ما دمنا نحيا فلا خوف من الموت ، واذا متنا فلن نحس بشيء » . هذا هو الحل الذي يقترحه ابيقوريس وآمن به البهلوان قبل ان يموت . لكن ما هو افظع من الموت هو الالم في الحياة .

في الليل

من يقرأ هذه القصيدة ـ اذا كان مستعدا للاحساس بتجربتها ـ ـ سيحس بنفس الوحشة التي يعانيها انسان مجبر على ان يعيش ليله بشكل مرعب . ان وجوده بين الاشياء يعذبه ، يسلبه وجوده ، ولكي يتواجد الى حين ، مع مخلوقة (ملعونة الحسن)، لا بد له انيعنف ليثبت وجوده : (يغدو غاشما .. احد الآلهة .) ان الليل ، بالنسبة لهذا « العاشق الغريب » يمثل لديه اقوى ما يلح عليه :

وياخذ نفسه للحانة زنديقا
يزحف الليل ،
يشتد في نفسه الميل ،
الى ان يقول :
في الليل يعصرها
في الصباح للشارع يرميها ، نفاية صفراء ،
تلعقها كلاب الليل الجائعة ...

ويعود نفس الليل من جديد ليرعبه باحد اختيارين : اما ان يواجه وحدته التي تحاصره بالاحزان واصوات الليل اللاانساني او ينسحق بين احضان من (تدوس الله بالقدمين ...) . ولا ينقذه من هذا الصراع الا : (ويذكر نفسه يرتاح ، للشمس النقية في الصباح) . انه شبيه بليل امريء القيس :

الا ايها الليل الطويل الا انجل بصبح وما الاصباح منك بامثل

لبل انسان لا يثير تساؤلات ما ورائية كما يمكن ان نقرأ عند ادجار الان بو في قصيدة « الغراب »،او تاملاتكما نجده في « نشيد الليل » لنتشه ، او حبا مثاليا يمتزج بالرؤى كما في قصيدة « اغنية الليل » لجبران خليل جبران . ليل محمد الشعرة ـ في هذه القصيدة ـ هو ليل علاقة الانسان الليلي بالاشياء والمخلوقات التي تبحث عن حياتها في خوف . ليل غاب موحش ، ليل مادي ، يبدأ هادئا هذا الليل وينتهي صاخبا ، ثم يعيد نفسه لينتهي كما بدأ .

ان هذا الانسان الليلي لا يجد اي عزاء في ليله ، لانه لا يعيش جانبه التاملي . انه يستعجل نهايته : (يا نهاية الليل .. حتى نهاية الليل !) لكنه لا يستطيع ان يتخلص من كابوسه تماما .

ان علاقته بمن (تدوس الله بالقدمين) لا تتم ـ خلال ليلهالشيطاني ـ الا باللعنة والسادية . ليل يلعن فيه قيم السماء من اجل ان يثبت ان هذه القيم قد تجاوزها على الارض . الحياة الممكنة عنده هي مثل تلك التي احس ادتور رامبو بنهايتها حين قال لاخته ايزابيل قبيل موته : « سأغيب تحت التراب ، وانت ، ستمشين في الشمس ! »

من خلال هذه القصيدة لا يمكن لنا ان نحدد بالذات الاسباب التي تدفع بهذا الانسان الليلي الى ان يحمل (نفسه زنديقا) الىالحانة كلما جاء الليل . هناك احتمالات كثيرة : وحدته في قريته ، ذكرى عاطفية قاسية تحفزه على الانتقام من الجنس الاخر ، وقد تكون من (يذكرها تمشي على النهدين) ، او ربما هي مآسي حياته باكملها .

ان ليله حزين ، والاشياء التي يزحف عليها حزينة : (تغيب الكرمة الكبيرة ، والعيون الزرقاء يسترها الليل ، عن الانسان العاشق الغريب ، تحوك الكلاب موسيقا ...)

ماذا يبقى اذن لهذا الانسان الموحش سوى ان يحمل (نفسهللحانة زنديقا) ؟ الليل يحزن اقرب الاشياء اليه وتغدو الاصوات الناشزة موسيقى . على انه ، رغما عن هذه الحياة الغابية ، الكئيبة ، فان انسان هذا الليل يتمرد على حياته ، ولا يرفضها بـ « لا » مطلقة، انه لا يعدمها على امل ان يسير في الشمس من جديد كما يتحسر عليها رامبو وسرطان الركبة ينهشه .

الراحل

انه يدرك ان قساوته بدافع الملل ، ملالته تقتل فيه ارق العلاقات الانسانية ، سيرحل تاركا وراءه ، هذا الصوت الانساني الذي يسترحمه ـ حياته الماضية ماتت (الحكايات الحبيبة ماتت بداخلي). لا يعد بشيء لانه ليس واثقا من اي شيء : (قد تضيع مني امتعتي الجميلة في الطريق) . رحلته طويلة . قد يسقط قبل ان يصل الى حيث يمكن ان يبدأ حياته من جديد . ان حياتنا في خطر دائم ، لكن حين يبدو امامنا ضياع كبير تصير اخطر .

(الشقاء ، ثمة في السديم الشقاء) . هذه هي ماساة الانسان الذي يحس ان وضع العالم ليس طبيعيا . لكي يكون طبيعيا ينبغي ان يكون لدينا فيه تعويض كاف من الحياة . اننا نعيش مرة واحدة فقط ونفنى الى الابد . انه حر في ان يحيا فيه او لا نحيا .انيكون مصيره حادا او بطيئا . لكنه لا يستطيع ان ينكر وجوده فيه .وحين يشعر بمنتهى الشقاء (لم يعد يجد الانسان اين يسند رأسه) ـكما يقول المسيح ـ يلجأ الى الاحالة القديمة .

الله يزرع الموت والدمار
والرؤى المفزعات
تنين له الف ذراع
يعيش من دم الصغار والكبار
ويقتلع الديار
الله يزرع الموت والدمار
ويحبه الصغار والكبار

انه لكي يجعل من ماساته وجودا حقيقيا لا بد له من هذا

(1) اسطورة القمر الرومانسية .

الخيال الازلي . وما يعمق شقاءه هو صعوبة فهم عناصر الاشياء والسام مما يملكه .

يوميات للتاريخ

هذا العاشق الغريب في (يوميات للتاريخ) بدا يدرك ان تمرده لن ينقذه من ادمانه : (يقينه الباب ، بلا رجعة ، ويعود .) على انه هناك خلاص لصراعه مع ذلك الليل ،وانتظار الصباح . انه في (صميم الابد) . ما عليه الا ان يتكيف مع الظروف ليدرك معنى لوجوده. لكن هذا ايضا ليس سهلا : (مرارة الخلق تعصرني .) فه رغم سقوطه في الطين : (تشمئز من الدروب) و(اهيم على وجهي ،التهم التراب) فانه لا يتخلى عن كبريائه : (واروح انشىء كالاله .) يحس بقوة هذا الخلق حتى العظام : (كنت قبلك ، يا شعر في خيال الاله .) الانسان مخلوق على صورة الله كما ورد في الانجيل . لكن (ليس هو ما هو) الانسان موجود لذاته (Etre pour soi) فيمشروع دائم . لذلك يحاول ان يخلق نفسه من جديد ليحقق حريته الثانية. زمانه ومكانه يوجدان في هذا العالم بما يبعثه فيهما من فعل مبدع . انه ذات وهو في صراع مع القوة التي خلقته كموضوع . لكن الى اي حد يسمح الاله الكبير للاله الصغير (المتحدي) بحرية الخلق نيابة عنه ؟ ان كبير الآلهة لا يتعب كقوة الليل والنهار . اذا اعطى الحرية للانسان فانه يعطيها ليشعر بقوة عطائه . يقول جوبيتر لاجيست (في مسرحية الذباب لسارتر) : « حين تنفجر الحرية يوما في قلب انسان فان الآلهة لا يملكون الا العجز تجاه هذا الانسان . ذلك انها قضية بشر ، ويجب على البشر الاخرين ـ عليهم وحدهم ـ ان يتركوه يجري او يخنقوه .» ثم يتواجه اورست مع كبير الآلهة :

جوبيتر ـ لست ملكك ايها الشبح الوقح . فمن خلقك ؟
اورست ـ انت . ولكن ما كان ينبغي لك ان تخلقني حرا .
جوبيتر ـ لقد اعطيتك الحرية لتخدمني .
اورست ـ هذا ممكن ، ولكنها ارتدت عليك ، ولا حيلة لنا بها ، لا انا ولا انت .

وينهي اورست هذا التحدي المجدف ، العنيد : انا لست السيد، ولا العبد ، يا جوبيتر . انني حريتي ! فما كدت تخلقني حتى كففت عن ان اخصك » .

هذا ما يحدث لجوبيتر مع اورست الذي لا يريد ان يستعبده عطاء كبير الآلهة . عندما تقول امة ما : لنا شاعرنا الكبير مثل هومر ، المعري ، دانتي ، شكسبير ، وجوته ... فانها تعلن عن اجمل قيمها الوجدانية التي يخلدها شاعرها .ومثل هذا التقدير للشعر يصدر حتى عن فيلسوف كارتر في سيرته الذاتية (الكلمات) حين يقول بهذا المعنى : « ان الشعر اجمل من التامل الفلسفي ».

مصيرنا الميتافيزيقي ما زال غامضا . لهذا يحاول ان يبحث الفيلسوف عن الحل ويكتفي الشاعر بالحلم به . لكن هذا الحلم لا يجرد الانسان من جانبه الآخر : كان المعتمد بن عباد ملكا وشاعرا. واليوم ما زلنا نجد رؤساء دول اماشعراء كماوتسي تونغ وليوبولد سيدار سنغور او يحترمون من يقول شعرا جيدا مثل روبرت كنيدي وبومبيدو . وهذا ما يؤكد مجال الشعر اينما كان الانسان مهما كان اتجاهه الفكري . الانسان اما ان يقول الشعر او يحترم من يقوله. ما زال انسان عصرنا نصفه فيلسوفا (بالمعنى الشامل لهذه الكلمة) ونصفه فنانا ساميا . انه منطقي وحدسي في آن واحد .

في قلب قريتنا اصيح :
هدموا الاعشاش من اعالي الشجر
ولتفن الزغاليل ، ولتفن العياة
ولتمطرنا السماء الحجر

ان هذا البطل ، الذي يدعو الى الهدم، بماذا يعد الذين سيسحقون الافراخ قبل ان تكبر اجنحتها والاطفال قبل ان يصيروا رجالا ؟ اننا لكي نغني حياة نملكها ينبغي لنا ان نكون متاكدين من خلق حياة اخرى ولذلك ، فحين يصيح:(انا لست اهلا للعيش ، ولا انت ، ولا كل البشر) . فانه يدعو الى انتحار جماعي . لكن هل كل البشر يقبلون مثل هذاالخلاص الهتلري حين ينهزم الانسان ؟ هذا اذا كانوا كلهم يحسون بلا جدوى الحياة . لقد دعا البير كامو الى الثورة على الحياة والموت لانهما ليسا معقولين مهما كان النعيم الذي ينعم به المحظوظون في الحياة . لكن ، دائما ، كان ضد الموت الانتحاري (الحاد والمزمن) والموت الذي يستند الى اتهام منطقي كما بين في كتابه « الانسان المتمرد » .

ان الثورة على كلما هو ليس انسانيا في التاريخ يتطلب ما يعوض القضاء على كل رواسبه .

حبيبتي ولوركا

هذا الانسان ، غير المتاكد من اي شيء ،والذي يصيح :
فظيع هو الجلد البشري
كرهته ، متى يفنى ؟
متى ينزع الجلد البشر ؟

يقرر ، بعد ان يزول فروره :
اعود للدار ، كادمي من بلاد بعيدة
مشتاقا لحبيبتي ولوركا

طنجة — محمد شكري

يصدر هذا الشهر

عدد خاص من مجلة

« الطريق »

حول :

السينما العربية البديلة

شارك في هذا العدد سينمائيون ونقاد وفنانون من لبنان وسائر البلدان العربية :

ـ حاضر السينما العربية
ـ نظرات جديدة الى تاريخ السينما العربية
ـ آفاق تطور السينما العربية الشابة

٢٥٦ صفحة ـ ٣٠٠ قرش